تعريب علوم الطب

للاستاذ الدكتور حسني سبح
رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

لما رغب الي أن اتحدث في هذا المؤتمر الزاهر*، عن تعريب علوم الطب، أو استعراب الطب كما يحلو لي أن يقال، ترددت حينا بين القبول والاعتذار، فكان مما يدعوني الى الاعتذار أن هذا الموضوع قد عولج مرارا في مثل هذا اللقاء، وفي غير مؤتمر وندوة مما عقد في كنف اتحاد الجامعات العربية، ومكتب تنسيق التعريب، واتحاد المجامع العلمية واللغوية، وكان يُتناولُ بتمامه، أو تُتَناوَلُ شعب منه، تحت عناوين شتى كـ(تعريب التعليم العالي وتعريب المصطلحات العلمية وتوحيد المصطلح الطبي ونحو ذلك). وكنت ممن شارك في بعضها، فخشيت إنْ ما عاودت الحديث فيه ان لا يكون لي جديد اطرفكم به، وأن اضطر الى تكرار بعض ما سلف أن قلته وقاله غيري، فيكون ذلك مدعاة الى السآمة والملل، ثم حملني على القبول أمور: منها أنه ما اقترح علي الحديث في هذا الموضوع الا والحاجة الى ذلك قائمة، ومنها أنّي اصدر في الحديث عن هذه القضية عن معاناة لها وتجربة فيها طويلة، وذلك أني واحد من قلة باقية قدر لهم أن يشهدوا مولد الاستعراب الجديد في مهده: دمشق، وان يقفوا على مراحل تطوره ونمائه حتى بلغ ما بلغ، كما قدر لي أن أكون ممن أسهم في ذلك ولو اسهاما متواضعا أيضا. ولقد بدأنا أنا وثلة من أترابي دراستنا للطب بالتركية قبيل الحرب العالمية الاولى. وامتد ذلك طوال السنوات الأربع الاول،وختمناها في السنة الخامسة بدراسته بالعربية. ثم كان أن أسند الي تدريس الامراض الباطنة وسريرياتها في المعهد الطبي العربي الذي أقيم في دمشق ابان قيام الحكومة العربية الاولى فيها، وهو الذي آل فيما بعد الى كلية الطب بالجامعة السورية (جامعة دمشق اليوم) وخبرت أن ادرسّ الامراض الباطنة بجميع فروعها

---

* المؤتمر الخامس للتعريب الذي عقد في عمان ما بين ٢١ - ٢٥ / ٩ / ١٩٨٥م.

عدة عقود سنين وليت خلالها عمادة الكلية ورئاسة الجامعة. وقد اضطرني ذلك الى أن وضعت بضعة عشر كتابا في موضوعات الأمراض الباطنة لتكون مراجع لطلبة الطب على اختلاف شعبهم ومستوياتهم، والى أن شاركت في وضع ما دعت الحاجة الى وضعه من مصطلحات.

هذا، وما اراني بحاجة الى أن أفيض في ذكر تجربة اسلافنا الاقدمين في هذا الباب، وما كان للطب العربي الاسلامي من شأن في نمو هذا العلم وتطوره، فقد اصبح من الحقائق التي لا مراء فيها ان أطباءنا الاقدمين لم يقتصروا على الاطلاع على ما ترجم اليهم من مواريث الامم الغابرة في هذا العلم بل أعادوا النظر فيما ترجم وعمدوا الى تنقيحه؛ وتجاوزوا ذلك الى الابداع فيه، فنفوا من طب الاوائل ما ثبت عندهم خطؤه، وتداركوا ما كان فيه من نقص، وأضافوا اليه الكثير الكثير من الجديد الذي هدتهم اليه بحوثهم وتجاربهم، حتى أصبح الطب عربيا خالصا وسارت فيه المقولة المشهورة: كان الطب معدوما فأوجده بقراط، وميتا فأحياه جالينوس، ومتفرقا فجمعه الرازي، وناقصا فأكمله ابن سينا، وبذلك صارت العربية لغة هذا العلم بلا منازع، حتى اضطر طلبة العلم من الغربيين الى ان يتعلموها ليدرسوا بها الطب وغيره من العلوم. ثم عكف فريق منهم على ما ألفه اعلام الطب المسلمون كالرازي وابن سينا والمجوسي من أطباء المشرق وابن رشد وابن زهر من أطباء الاندلس، وأخذوا يترجمونه الى اللاتينية لغة الدين والعلم عندهم اذ ذاك، وظل ما ترجموه عماد دراسة الطب فيما أنشيء في ايطاليا وفرنسا من مدارس لتعليمه، وامتد ذلك قرونا. وكان من ذاك أن سَرَى إلى لغة الطب في الغرب كثير من الالفاظ العربية.

وقد كان الطب العربي الاسلامي قمينا بأن يستمر في النمو والتطور لولا أَنْ قُدِّرَ لهذه الأمة أن تمر في اواخر القرن السابع الهجري بفترة ركود حضاري كان نتيجة حتمية لما دهاها من الاحداث والكوائن العظمى، في طليعة ذلك ان اصطلح عليها في آن زحفان لم يعرف التاريخ أكبر منهما الزحف الصليبي من الغرب يؤازره الزحف المغولي من الشرق، مما اضطرها الى أن تسخر على مدى قرنين معظم جهودها وطاقاتها لدرء هذا الغزو الذي كان يستهدف أصل وجودها، وما أن تم لها طرد الغزاة حتى فاءت الى بلهنية امتدت قرونا، على حين كان الغرب يستيقظ من رقدته الطويلة ويستأنف نشاطا حضاريا

جديدا انطلق فيه مما أخذه من الحضارة العربية الاسلامية. وما ان ذرّ قرن عصر النهضة الصناعية في ربوعه في القرن الثامن عشر للميلاد، حتى تمخضت تلك النهضة عن استحداث كثير من الادوات والآلات التي لم يكن للانسانية بها عهد، وعن استنباط تقنيات جديدة، مما هيأ الأسباب للكشف عن عالم ظل حتى ذلك الحين محجوبا عن الابصار، وذلك عالم المجهريات – عالم ما لا يمكن رؤيته الا بالمجاهر – واستعلنت حقائق من حقائق الحياة والوجود كانت خافية، فكان ذلك بداية طور جديد خلقت فيه العلوم خلقا جديدا، بدت معه كأنها لا صلة لها بما تقدم في العصور الغابرة، وكانت البداية التي انطلق منها تطور الطب حتى بلغ في ايامنا ما بلغ، أن اكتشف اذ ذاك حقيقة بدن الانسان وغيره من الاحياء، وان نُسُجَه مكونة من وحدات صغيرة هي التي تدعى بالخلايا، وأن اكتشفت أيضا الطفيليات الدنيا المتناهية في الصغر والجراثيم التي هي الاصل في كثير مما يصيب الانسان وغيره من الاحياء من أمراض.

هذا الى أن اصحاب الكيمياء تمكنوا في ذلك الحين أيضا من استحداث مركبات شتى سرعان ما أخذ كثير منها سبيله الى صناعة الصيدلة فركبت عقاقير طبية كثيرة، كانت انجع في المداواة من أدوية الطب القديم وهكذا تم استعراب الطب وسائر العلوم.

ولما قيض لا متنا أن تصحو من غفوتها في أوائل القرن الثالث عشر الهجري كان لا بد لاستكمال أسباب النهضة أن تضيف الى ما ورثته من حضارتها السالفة ما استحدثته الحضارة الغربية في باب العلوم والصناعة، وكان قصب السبق في ذلك لأرض الكنانة مصر.

وما ان انتهى أمر الحكم في مصر الى محمد علي حتّى انشأ – فيما انشأ من مرافق – مدرسة لتعليم الطب اقيمت أولا في أبي زعبل ثم نقلت الى قصر العيني في القاهرة. واستقدم لها اساتيذ من فرنسا، جاعلا التدريس فيها بالعربية. ونشطت الترجمة لأمهات كتب الطب، وتتابع ارسال البعثات. وكان لا بد بعد ذلك من ايجاد ألفاظ ومصطلحات طبية عربية سلكوا في سبيلها ما يأخذ به المشتغلون باستعراب الطب اليوم: أحيوا من مصطلح الطب العربي الاسلامي ما رأوه وافيا بالغرض، واجتهدوا في وضع مقابل بالعربية لما جد من مصطلحات، وأما ما لم يهتدوا فيه الى لفظ عربي مناسب فقد لجأوا فيه الى

التعريب، ولم يمض عقدان من السنين حتى استعرب الطب في جميع انحاء مصر استعرابا كاملا وبلغ عدة ما ترجمه وألفه اساتيذ هذه المدرسة ستة وسبعين كتابا اشتملت على ألوف من المصطلحات وقد امتد هذا الاستعراب زهاء سبعين عاما. ثم دهيت مصر سنة ١٨٨٢ بالاحتلال الانجليزي وسيطرة داهية القوم (دنلوب) على التعليم فيها، ففرض تعليم العلوم بالانكليزية وبذلك حلت الانكليزية محل العربية في مدرسة قصر العيني وغير اسمها فصارت (كلية الطب) ثم الحقت بعد بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة اليوم) وظل التدريس فيها بالانكليزية كما اراد (دنلوب) حتى اليوم.

وقفا اثر هذه الجامعة في ذلك سائر ما انشيء بعد في مصر من جامعات، مع أن النظام الاساسي لكل منها ينص صراحة على أن لغة التدريس فيها هي العربية مع جواز التدريس بالانكليزية استثناء، الا ان واقع الأمر ان هذا الاستثناء أصبح هو الأصل. واخذت معالم الاستعراب السابق الذي تم على أيدي رجال صدق من أعلام قصر العيني وغيرهم من معاصريهم تمحي شيئا فشيئا حتّى كادت تندثر على رغم الجهود الكبيرة الصادرة التي بذلها رجال مجمع اللغة العربية بالقاهرة والأعمال العظيمة التي قاموا بها بمعونة خبراء من اساتيذ تلك الجامعات لتيسير أمر التعريب وتهيئة اسبابه.

وفي الحين الذي أخذ فيه استعراب الطب ينحسر في مصر بتأثير نظام دنلوب، اتيح للطب أن يستعرب مدة لم تطل في ديار الشام وفي بيروت منها خاصة، وكان ذلك على أيدي طائفة من المبشرين الامريكيين نزلوا اذ ذاك في بيروت وبعض ما يجاورها من قرى جبل لبنان لينشروا مذهبهم البروتستانتي، وتعلم نفر منهم العربية ليقوموا على ترجمة كتابهم المقدس بعهديه، ترجمة جديدة تحل محل الترجمة القديمة التي لم ترق لهم، حتى اذا انجزوا تلك الترجمة انشأوا لنشرها مطبعة ما تزال تعرف بـ (المطبعة الامريكية) وتلا ذلك أن نشروا ما ترجموا من الكتب المدرسية لمرحلتي التعليم الابتدائي والثانوي ثم انشأوا في نطاق ما دعوه اذ ذاك (الكلية السورية الانجيلية) (جامعة بيروت الامريكية اليوم) مدرسة لتعليم الطب وجعلوا التعليم فيها بالعربية ودام ذلك نحو اثنتي عشرة سنة، ثم صار التعليم فيها بالانكليزية. وقد وضعوا خلال هذه الحقبة من الزمن بضعة عشر كتابا جيدا في شتى علوم الطب، وأفادوا في باب المصطلح من صنيع رجال قصر العيني، الا أن مصطلحاتهم لم تخل من خلاف لمصطلحات اولئك، مَردُّهُ الى أن هؤلاء كانوا

يستقون من مصادر انكليزية أمريكية، وأما اولئك فكانوا يستقون من أصول فرنسية، وللسبب نفسه ما وجد نحو هذا الاختلاف بين مصطلحات قصر العيني والمصطلحات التي وضعت في السنين الاخيرة في مصر ذاتها.

ومع ان هؤلاء الاميركيين انما كانوا يرمون الى أغراض تبشيرية تشوبها مطامع استعمارية، فقد أفاد صنيعهم في رفع المستوى العلمي والطبي والصحي في ديار الشام عما كانت عليه الحال في سائر الولايات العثمانية.

والطريف في أمر هذه المدرسة الامريكية، ان العربية فيها لم تقتصر على التدريس بها فحسب، بل شملت شؤون الادارة والأمور القرطاسية الأخرى حتى ان الدولة العثمانية تساهلت معها في بادىء الأمر بقبولها العربية ايضا في اداء امتحانات الخريجين في استانبول من أجل منح الترخيص في حق ممارسة المهنة في البلاد العثمانية- لأن شهادة المدرسة وحدها لا تكفي لذلك- وعدلت الدولة عن العربية بأُخرة ولم تقبل اداء الامتحانات الا بالتركية أو الفرنسية.

أما وقد اتيت على ذكر استانبول، ليبدو لزاما علي وأنا في صدد الالمام بتاريخ استعراب الطب - أن اعرج على دار الخلافة، لاتي على ذكر تجربة سبق أن السعت اليها في بعض احاديثي السالفة، وهي تجربة الدولة العثمانية في تتريك الطب، وذلك لأمرين: أحدهما أنها تضرب مثلا بطوليا في انفاذ الارادة القومية نحواً من المثل البطولي الذي يضربه صنع رجال القصر العيني،والآخر ان حركة الاستعراب الاخير أفادت من هذه التجربة من الوجه الذي سأذكره.

كانت البدايات التي مهدت لهذه التجربة في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي عندما حاول السلطان محمود الثاني أن يدخل الاصلاح بالاعتماد على النسق الاوربي في أجهزة الدولة ومؤسساتها وان ينهض بها بعدما بلغت من الضعف ان كانت تدعى في المحافل الدولية بـ (الرجل المريض) وكان من ذلك تأسيس مدرسة الطب على غرار المدارس الفرنسية فاستقدم من أجل هذا اساتيذ أجانب من اوروبا. وكان في عاصمة الخلافة مدرسة للطب تسير على النمط الاجنبي يدرس الطب فيها بالايطالية، وعهد الى أولئك بالتدريس باللغة الفرنسية معلنا في كلمته التاريخية في حفل التدشين

سنة ١٨٣٩ ما معناه: ليس بوسعنا أن نجعل التدريس بالتركية الآن واني أعدكم بأن يتم هذا في القريب العاجل.

ولم يتح لهذه الإرادة السنية –كما يقولون– ان تتم في حياته، وتحققت في أيام خلفه السلطان عبد المجيد بعد احدى وثلاثين سنة وأربعة شهور وخمسة عشر يوما (كما جاء في احدى المجلات الطبية) والسبب في ذلك المعارضة الشديدة للأساتيذ الاجانب، اذ كانوا من دول مختلفة بينهم النمسوي والفرنسي والايطالي والانكليزي ومعهم اساتيذ من الروم والأرمن من رعايا الدولة العلية كما كان يطلق عليها ولم يكن فيهم من الاتراك الا اثنان فقط.

اسخطت الحال الرأى العام، وكان في طليعة الساخطين طلبة الطب انفسهم ولم يدعوا ان يبيّنوا عن هذا السخط في أية مناسبة، وعن رغبتهم في أن يكون التدريس بالتركية مما دعا الصحافة– التركية المناصرة لهم أن تنعتهم بـ (الطلاب المجاهدين) ولقيت دعوتهم قبولا لدى رجال الحكم وعلى رأسهم المدعو أسعد باشا رئيس ما يسمى بالشورى العسكرية، فقد استدعى هذا، ثلاثة من كبار هيئة التدريس الاجانب وسألهم: أى الأمرين أجدى وأعود بالنفع على الأمة، التدريس بلغة أجنبية أم التدريس بلغتنا القومية؟ فلم يسعهم الا ان يجيبوا بأن التدريس بالتركية أجدى فائدة. وكان اقرارهم هذا، سنداً قوياً للقضية، وانتصرت ارادة الأمة،وشرع بالاعداد للأمر عدته، وألفت جمعية طبية تضم كبار الاطباء عرفت بـ (الجمعية الطبية العثمانية) من أهم مهامها وضع مصطلحات طبية من أجل تدريس الطب بالتركية.

بدأ تتريك تعليم الطب من السنة الخامسة (وهي الأولى بترتيبنا اليوم) واستغرق خَمْسَ سنوات، وكان من اهتمام السلطان عبد المجيد بشأنه حضوره بالذات امتحانات التخرج.

وكان تتريك الطب في الحقيقة شبه استعراب له وممهدا للاستعراب الكامل، اذ كان نحو ٩٠ في المئة من مصطلحاته ألفاظا عربية. ومما مهّد للاستعراب الأخير عمل آخر أقدمت عليه الدولة العثمانية ايضاً في أوائل هذا القرن، وذلك ان انشاء المبشرين البروتسنانت الاميركيين سنة ١٨٦٦ مدرستهم التي سلف الحديث عنها في بيروت، حفز

منافسيهم المبشرين الكاثوليك على ان ينشؤوا سنة ١٨٨٢م مدرسة اخرى للطب فرنسية باسم (جامعة القديس يوسف) وبقيام هاتين المدرستين أصبحت بيروت المرجع الطبي المنظور اليه لا في بلاد الشام وحدها، بل في أكثر بلاد الشرق الادنى ايضا، فحمل ذلك الدولة العثمانية سنة ١٩٠٣م على ان انشأت مدرسة للطب في دمشق، لتنافس تلكما المدرستين من جهة، ولسد حاجة البلاد الى اطباء وصادلة من جهة اخرى. وما ان اندلعت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤م وخاضت الدولة العثمانية غمارها حتى جندت هيئة التدريس واكثر طلابها، وأغلقت ابوابها ثم اعيد افتتاحها سنة ١٩١٦ بعد الحاقها ولكن في بيروت وفي مباني جامعة القديس يوسف اليسوعية، وكانت الدولة قد صادرتها، واستمرت هذه المدرسة قائمة الى ان انتهى الحكم العثماني في اواخر ١٩١٨م وقد تخرج منها خلال ١٥ سنة ٢٤٠ طبيباً و ٢٨٩ صيدلانياً جلهم من الشاميين، وأما القلة الباقية فكانوا من الترك والارمن.

في خريف عام ١٩١٨ تحررت دمشق مع غيرها من بلاد الشام، من الحكم العثماني، بحلول الجيش العربي (جيش الثورة العربية الكبرى) فيها بقيادة المغفور له الامير فيصل بن الحسين (الملك فيصل الاول فيما بعد) صبيحة احتلال الجيش البريطاني لسورية بأكملها من الجنوب الى الشمال ومن الساحل الى الداخل، وأطلق على هذه البلاد وقتئذ اسم (بلاد العدو المحتلة) وأخضعت للحكم العسكرى وكان من نصيب دمشق تولية الحكم العسكرى فيها للفريق على رضا باشا الركابي، ابن دمشق البار، بلقب (الحاكم العسكرى العام) مع منحه سلطة تشبه ما يعرف اليوم بالحكم الذاتي.

وما ان رأى الناس الراية العربية المربعة الالوان ترفرف في السماء حتى تنفسوا الصعداء عمت الفرحة ودب الحماس فيهم بما يصعب وصفه، وسرعان ما هرع الكل الى تأييد الحكم العربي القائم وشد أزره، لا سيما وكانت الحكومة ممثلة فيه كل البلاد العربية التي انفصلت عن الدولة العثمانية، وشرع بالاستعراب ونبذ كل ما ليس عربيا من ألفاظ ومُسَمّيات درجت على الالسن، وبخاصة فيما يتعلق بدوائر الحكومة والمصالح العامة، وفي مقدمتها لغة التدريس في المرحلتين الابتدائية والثانوية، وتهيئة ما يحتاج اليه التدريس من كتب عربية، تم ذلك بسرعة عجيبة وسع ما بذل من اهتمام بلا كلال ولا ملل.

بين الصحف والمجلات التي ظهرت في مطلع عام ١٩١٩، مجلة اسبوعية اصدرتها مديرية الصحة العامة، لا يتجاوز عدد صفحاتها في بادىء الامر الثمانية وأصبح بعد قليل ست عشرة صفحة تعنى بالاصل بالشؤون الصحية، نشر فيها المرحوم الدكتور حكمة المرادى سلسلة من المقالات بعنوان (اللغة العربية والطب) صحح فيها الكثير من الاخطاء الشائعة بين جمهور الاطباء من الفاظ ومصطلحات طبية أخذت عن التركية (وذلك قبيل افتتاح مدرسة الطب) واستمر في النشر بعده، مما كان له الاثر الحسن وعد أول خطوة في الاستعراب. وكان الحدث العظيم في مطلع السنة ذاتها، اعادة افتتاح مدرسة الطب بدمشق، لتخلف مدرسة الطب العثمانية السابقة. اقيم حفل الافتتاح يوم ٢٣ كانون الثاني سنة ١٩١٩ في احدى باحات المستشفى الحميدي (مستشفى الغرباء كما يعرف به ايضا) شهده جمع غفير من رجال الحكم والعلم والثقافة وناب في رعايته عن الحاكم العسكري العام، مساعده اللواء ياسين باشا الهاشمي العراقي الانتماء وألقيت الخطب الحماسية مشيدة في شأن هذه الخطوة المباركة، ولم يمض على هذا الحفل الا اشهر معدودة حتى تلته مأثرة ثانية للحاكم العسكري العام بأن أقر تأسيس المجمع العلمي العربي، ثم افتتاح مدرسة للحقوق بدمشق أيضا لتخلف مدرسة الحقوق العثمانية التي كانت قائمة في بيروت قبل اعلان الحرب العالمية. وبعد شهرين تفضل الامير فيصل بزيارة المدرسة مبديا سروره واعجابه بما تم.

تولى التدريس في مدرسة الطب العربية (هكذا كان اسمها ثم سميت بالمعهد الطبي العربي من الجامعة السورية وأخيرا كلية الطب من جامعة دمشق) تولى التدريس فيها معلمون عرب من ذوي الاختصاص في شعب الطب والصيدلة، بينهم استاذ سابق في مدرسة الطب العثمانية في استانبول الاستانة وجلهم من مساعدي الاساتيذ الاتراك في مدرسة الطب العثمانية بدمشق والى جانبهم بعض كبار الاطباء العسكريين المتخصصين في الجيش العثماني ثم الجيش العربي وكلهم ممن درس الطب بالتركية، الا استاذاً واحداً كان من خريجي كلية الطب اليسوعية في بيروت التحق بالثورة العربية الكبرى وهو ضابط في الجيش العثماني كان ممن يجيدون العربية.

لم يكن هؤلاء الاساتيذ على مستوى واحد من معرفة اللغة العربية من بينهم المجلون ويعدون بحق رواد الاستعراب في الشام وهم الاطباء جميل الخاني وأحمد حمدي الخياط

ومرشد خاصر والصيدلي عبد الوهاب القنواتي ولم يلبث غيرهم ان بادر الى تعلم الفصحى واتقانها حتى بَذّ التقيد بها بالتدريس في المعهد الطبي الكليات غير العلمية بشهادة احد المستشرقين الذين زاروا دمشق.

وفي صيف ١٩٢٠ احتل الجيش الفرنسي البلاد فقضى على الحكومة العربية القائمة بعد ان سبق اعلان استقلال سورية في ربيع العام نفسه مع البيعة للمغفور له فيصل بن الحسين ملكا دستوريا عليها بحدودها الطبيعية، ونجم عن هذا الاحتلال بعض التغيير في كيان مدرسة الطب العربية، بعد أن انسحب من هيئة التدريس فيها عدد من اعضائها منهم من هو على صلة وثيقة بالعهد السابق الذي أبى رجاله الاذعان لانذار العدو، ومنهم من عرف عنه الارتباط باللجنة الوطنية العليا التي قادت الأمة في جهاد العدو المغتصب، وحل محلهم من يدانيهم في الكفاية من اطباء وصيادلة.

وبعد ان توطد الامر للعدو المحتل، وكان لا بد له من التدخل في شؤون المدرسة، فرض اتباع النظام الفرنسي في برامجها دون غيره، وضم الى هيئة التدريس ثلاثة من الفرنسيين. وعلى رغم ذلك تابعت حركة الاستعراب مسيرها ولم يثنها عن المتابعة عائق، وكل ما هنالك ان الاساتيذ الفرنسيين كانوا يلقون دروسهم السريرية (وهي الدروس العملية التي تلقى حول سرير المريض) بالفرنسية ويقوم بترجمتها الى العربية احد المساعدين، ثم أستغنى عن الترجمة عندما تقدمت معرفة الطلاب بالفرنسية وصاروا قادرين على فهم ما يلقى بها.

وفي سنة ١٩٢٣ أحدثت ادارة الجامعة السورية (جامعة دمشق) لتضم معهدي الطب والحقوق والمجمع العلمي العربي، الا ان المجمع لم يلبث ان انفصل عن الجامعة متمتعا باستقلاله الخاص مع مثابرته على رعاية الاستعراب في شتى المؤسسات.

وفي سنة ١٩٢٤ بدأ المعهد الطبي العربي باصدار مجلة شهرية تحمل اسمه (مجلة المعهد الطبي العربي) ترأس تحريرها الاستاذ مرشد خاطر وعاشت اثنين وعشرين عاما (١٩٢٤ – ١٩٤٦) وقد اسهمت هذه المجلة اسهاما كبيرا في ازدهار المعهد وتقدمه من الناحيتين العلمية واللغوية: فمن الناحية العلميّة أخذت تنشر البحوث العلمية الأصيلة التي كان يقوم بها اعضاء هيئة التدريس ويتناول معظمها دراسات عن الامراض المتوطنة (المستوطنة) في القطر من أقصاه الى اقصاه، الى جانب مقتبسات من الصحافة الطبية

الاجنبية عن كل جديد في عالم الطب. ومن الناحية اللغوية فقد افاد منها استعراب علوم الطب فائدة لا تثمن، فعلى صفحاتها عرض على بساط البحث الالفاظ والمصطلحات المتداولة في التعليم لتكون موضع دراسة وتمحيص ونقاش لا من قبل الاطباء الاخصائيين واللغويين في القطر وحده، بل شاطرهم هذا نظراؤهم من الاقطار العربية الاخرى مما مكن من اختيار الاصلح منها.

على هذه الوتيرة سار تعريب علوم الطب والمعهد الطبي العربي ماض على الدرب حتى في عهد الانتداب الفرنسي على رغم العراقيل التي كانت تُوضع في سبيله خفية.

تبدلت الحال بعد جلاء الاجنبي عن البلاد، وما ان نعم القطر بالاستقلال التام حتى صار عدد أعضاء هيئة التدريس اضعاف ماكان عليه من قبل، لكثرة ما أحدث من فروع وشعب جديدة، ولتعدّد البعثات الى الجامعات الاجنبية من شرقية وغربية. وكان ذلك مدعاة الى تعدد ما يقترح في مقابل المصطلح الواحد، مما حمل معهد دمشق على تأهيل لجنة باسم(لجنة المصطلحات الطبية) قوامها الاساتيذ مرشد خاطر وأحمد حمدى الخياط وصلاح الدين الكواكبي لترجمة معجم كليرفيل الفرنسي الكثير اللغات الى العربية، وقد صدرت الترجمة المذكورة عام ١٩٥٦م مشتملة على بضعة عشر الف مصطلح، وأعتمدت رسميا لتكون مرجعاً وحيدا في هذا الشأن.

عُدّ صدور هذا المعجم في حينه خطوة جديدة لتعزيز تعريب علوم الطب وفي سبيل توحيد المصطلحات في القطر، والحد من تعدد المترادفات في الكثير منها، وفسح ظهوره المجال أمام النقاش والنقد وابداء الرأى فيما اشتمل عليه.

تقدمت هذا المعجم بنشر سلسلة من المقالات في مجلة المجمع العلمي العربي(مجمع اللغة العربية بدمشق بعنوان(نظرة في معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات) بلغت عدتها ستاً وسبعين مقالة نشرت على اثنين وعشرين عاماً من المفيد ان انقل اليكم ما قلت في خاتمتها:«لست ادعي اني جئت فيما عرضت له بالقول الفصل، اكبر ظني اني لو اتيح لي معاودة النظر في هذا الذى كتبت لزدت اشياء، وغيرت أشياء واستدركت أشياء، الا اني أرجو أن اكون بما صنعت قد اسهمت ولو اسهاماً ضئيلاً في وضع مصطلحات الطب، وأن أكون ذللت بعض المصاعب، لأن

الطريق طويل، والحاجة الى متابعة العمل وتضافر الجهود فيه ستظل قائمة ما دام العلم في تطور ونمو».

وثمة خطوة أخرى حاولت جامعة دمشق أن تخطوها، ولكن لما يكتب لها تمام التنفيذ. وذلك أنه اقدم استاذان من رواد استعراب الطب فيها، وهما الدكتوران: احمد حمدى الخياط، ومرشد خاطر على وضع معجم فرنسي عربي موسع، شرحا فيه المواد شرحا وافيا، وجاء في ثلاثة أسفار، ثم لم يتيسر لهما نشره. ومضت سنوات توفي خلالها أحد واضعيه: الدكتور مرشد خاطر ثم قررت وزارة التعليم العالي تقديرا منها لهذا العمل الثمين أن تطبعه على نفقتها بمناسبة احتفال كلية الطب بعيدها الذهبي(مرور خمسين عاما على تأسيسها) فعهد الاستاذ احمد حمدى الخياط الى نجله النجيب الدكتور محمد هيثم الخياط(وهو سرّ ابيه حقا) أن يعيد النظر في هذا المعجم وأن يتسع في ذلك ويضيف اليه ماجد في بابه. وأن يراعي ما نقد به المعجم السابق(معجم كليرفيل الكثير اللغات) ولا سيما مقالاتي التي تقدم ذكرها، وما تتفق عليه الكلمة في المعجم الطبي الموحد-وكان قيد الاعداد- وأن يذكر الى جانب الالفاظ الفرنسية ما يقابلها بالانكليزية أيضا. وأن يلحق به سفراً رابعاً يشتمل على مسردين للالفاظ احدهما عربي والاخر انكليزي- لاتمام الفائدة.

وصدر السفر الأول من هذا المعجم(معجم العلوم الطبية) سنة ١٩٧٤ وهو يتضمن المواد من حرف Aالى E ويقع في ٦٠٤ ص في كل منها ثلاثة أعمدة. وقد ضبطت فيه الالفاظ العربية بالشكل. الا ان الدكتور هيثم اضطر- بعد وفاة والده رحمه الله- الى التريث في متابعة العمل حتى يفرغ من الطبعة الثالثة من المعجم الطبي الموحد الذى سيأتي خبره ولعله منجز ما وعد به قريبا ان شاء الله.

وهناك معجم آخر نشر في دمشق ايضا سنة ١٩٧٠م وأنفقت نقابة أطباء الاسنان فيها على طباعته، وقد وضعه الدكتور ميشيل الخورى الاستاذ السابق في كلية طب الاسنان واحد اعضاء مجمعنا الراحلين، واسمه «معجم مصطلحات تعويض الاسنان «- انكليزي - عربي - افرنسي» وقد ضبطت مواده بالشكل، وشرحت بالعربية أيضا. ولعل هذا المعجم هو المعجم الوحيد في بابه حتى يومنا هذا.

وعلى غرار ما جرت كلية الطب بجامعة دمشق جرت مختلف كليات الطب التي انشئت في سائر المدن السورية .

هذا ، وقد قادني الى الحديث عن هذه المعاجم التي ظهرت في دمشق اني في صدد الحديث عن الاستعراب الجديد الذى تم فيها . واما من حيث التاريخ فكما كانت مصر مهد التجربة الاولى في استعراب الطب كانت السابقة الى وضع المعجمات الطبية لتعزيز الترجمة الى العربية أيضا . ولعل أول معجم هو المعجم الذي ترجمه عن الفرنسية الدكتور محمود رشدي البقلي من اطباء قصر العيني ، ونشره في باريس سنة ١٨٧٠ ثم كان المعجم الذي وضعه ونشره في اوائل القرن الدكتور محمد شرف باسم (معجم انجليزي عربي في العلوم الطبية والطبيعية) وهو يعد بحق أبا المعجمات الطبية العربية ، وسيظل عمله شامخا في تاريخ استعراب الطب الحديث .

وبمناسبة احتفال مجمع اللغة العربية بالقاهرة بالعيد الخمسيني لتأسيسه ، فقد نشر في العام الماضي الجزء الأول من معجمه (معجم المصطلحات الطبية) من وضع لجنة المصطلحات الطبية فيه ، وباشراف مقررها الاستاذ الدكتور حسن علي ابراهيم ، اقتصر هذا الجزء على مواد من حرف A الى C ، مع تعريف واف لها ، والمأمول ان يتوالى صدور الاجزاء الباقية بسرعة ، لأن المجمع سبق له ان اورد معظمها في نطاق ما يصدره سنويا من (مجموعة المصطلحات العلمية والفنية).

واسهم المجمع العلمي العراقي في الاعداد لتعريب علوم الطب ، بنشره عدة مجموعات من مصطلحات علوم الطب على اختلاف انواعها ، يرجى عند اتمامها ان تكون معجما طبيا عربيا كاملا ، كما ولمجمع بغداد الفضل ايضا في المساعدة الخيرة التي تكرم بها في اسهام نائب رئيسه الاستاذ الدكتور محمود الجليلي بترؤس تحرير الطبعتين الاولى والثانية من (المعجم الطبي الموحد) تلبية لا تحاد الاطباء العرب وسيأتي ذكر طبعته الثالثة .

وثمة كبير الامل في ان يسهم مجمعنا هذا النشيط (مجمع اللغة العربية الأردني) الذي نلتقي اليوم في رحابه (بضمه الى سلسلة المترجمات العلمية القيمة التي اضطلع بنشرها منذ سنين ، مترجمات طبية مماثلة في الاسهام والتوطئة لاستعراب الطب في هذا القطر العزيز .

وبين منشورات تذكار العيد المئوي لتأسيس الجامعة الامريكية في بيروت سنة ١٩٦٦ صدر قاموس حتّي الطبي انكليزي عربي لمؤلفه الصديق الدكتور يوسف حتي الاستاذ الاسبق للامراض الباطنة وعلم التشريح في الجامعة المذكورة، لا تقل مواده عن ٥٠ ألفا استقى مصطلحاته الطبية من شتى المراجع قديمها وحديثها، ضمها ٧٥٨ صفحة على عمودين بالاضافة الى ما اورد في آخر المعجم بعنوان (فهرس القاموس للالفاظ العربية ومعانيها الانكليزية) جاء في ١٠٦ صفحات على ٣ اعمدة. وان في اعادة طباعته اربع مرات خلال السنين الماضية لدليلا على ما لقيه هذا المعجم من رواج وما يستحقه من تقدير.

وخاتمة المطاف ومسك الختام في مجموعة المعجمات الكاملة الصادرة حتى اليوم، صدور الطبعة الثالثة من (المعجم الطبي الموحد) قبل سنتين برعاية مشتركة بين كل من مجلس وزراء الصحة العرب ومنظمة الصحة العالمية واتحاد الأطباء العرب، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (وبدعم مادي خير تشكر عليه) بعد ان عكف على تحضيره طوال عدة سنين لجنة قوامها احد عشر عضوا من الأساتيذ الأطباء المجمعيين والجامعيين من سبعة اقطار عربية، بذت هذه الطبعة الأخيرة سابقيتها، بأن اصبح المعجم فيها ثلاثي اللغة (انكليزي– عربي– فرنسي) مع تنقيح في بعض ما سبق من مواد وزيادة فيها، (اذ اصبح عدد مواده زهاء ٤٠ ألفا) وامتازت بأن اشتمل مجلدها الأنيق على ٧٦٠ صفحة من المتن، تلاها ١٦ صفحة للوحات ايضاحية و ١٠٠ صفحة لمسرد عربي انكليزي على ثلاثة اعمدة، تمت الطباعة الجيدة في سويسرة وبعناية الزميل النشيط مقرر اللجنة الأستاذ الجامعي والمجمعي الدكتور محمد هيثم الخياط وجهوده.

والنية معقودة على ان تعيد اللجنة النظر فيه– أمر لا بد منه– لاضافة ما فات اللجنة اضافته وما استجد منذ سنوات، وبأخرة، للبحث في تحضير نسخة من المعجم بترتيب فرنسي عربي انكليزي تلبية للرغبة واتماما للفائدة.

هذا بايجاز، ما تم التوصل اليه على حد علمي– في قضية استعراب علوم الطب ومما لا شك فيه انها لا حدى قضايانا المصيرية الكبرى التي لا تحتمل ادنى تهاون. ولن يكون لنا وجود متميز تتجلى فيه اصالتنا الخاصة ويهيىء لنوابغنا اسباب الابداع، الا اذا كان للغتنا القومية الهيمنة في جميع مجالات حياتنا وفي طليعتها العلم والتعليم على

مختلف مستوياته. وانما قصصت فيما سلف تجارب اسلافنا التي تقدم امثلة بطولية في هذا الباب، ثم تجربة الجامعة السورية، (جامعة دمشق) التي ما تزال قائمة مستمرة لأبين أن صحة النية وصدق العزيمة في السعي الى تحقيق الأماني والمطامح القومية كفيلان بتذليل اقسى العقبات، وألححت على قضية المصطلح لأن هذه القضية في طليعة ما يتعلل به الزاهدون في التعريب والمشككون في الاقتدار على المضي فيه، على حين ان قضية المصطلح- من حيث هو الفاظ يعبر بها عن مسميات ومعان مفردة- ليست بصميم المشكلة، بل قد تكون- على مالها من شأن- أهون جوانبها، **وانما صميم المشكلة هو الاقتدار على وعي المعاني العلمية وتصورها ثم الابانة عنها**، ولن يتم حلها وتذليل صعابها الا بالتصميم على ذلك والشروع فيه وان اضطررنا- ولو الى حين- الى استعمال المصطلحات الاجنبية بلفظها الاجنبي. هذا مع ان الاعمال التي قامت بها في هذا الباب مجامعنا العلمية واللغوية- وفي طليعتها مجمع اللغة العربية بالقاهرة ومكتب تنسيق التعريب والجامعات التي تدرس بعض العلوم بالعربية- تقدم قاعدة صالحة لتعميم تعريب العلوم. ولئن كنا لما نصل الى توحيد ما وضع من مصطلحات توحيداً كاملاً، فإنّ هذا لا بد من مثله في بدايات كل عمل، بل قد يكون مما لا بد من بقاء جانب منه، ولا سيما في أمة كأمتنا تنساحُ في رقعة من الأرض غاية من الاتساع. وما أظن أمة من الامم الكبرى تخلو من معاناة مثل هذه المشكلة أو ما يشبهها.

ومما لا يسعني الا ان اذكره أن على الحكومات العربية أن تولى لغتها القومية مزيدا من العناية في التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي حتى يحذق الطلبة اصولها وطرائق التعبير فيها، وينمو زادهم من الفاظها، ويصبحوا قادرين على التعبير بها عن مختلف المعاني بيسر وسهولة، وأن تعنى بتنمية الدراسات اللغوية على اصول صحيحة واذا ما تم لنا ذلك- ولا بد ان يتم ان شاء الله- فلن تكون قضية استعراب العلوم بالمشكلة المستعصية. وما أظن احدا من أولى النظر - وان كان ممن لا يرون التعريب - الا منطويا في غيب نفسه على الاعتراف بصدق هذا الذى ذكرت ، ان قضية التعريب أمانة في عنق كل منا وما علينا بعد، الا ان نخلص النية ونصدق في العمل ليتم لنا ما نطمح اليه. اللهم قد بلغت فاشهد.